البَـابُ الثـانى

بَين السّلطان والإمَام

« السلطان كراكب الأسد ،
يهابه الناس ، وهو لمركوبـه
أهيب »

أفلاطون

obeikandl.com

آلت الخلافة إلى بنى العباس سنة ١٣٢ وكان « السفاح » أوّل خلفائهم . ثم مات فخلفه أبو جعفر المنصور ، ليبقى فى الخلافة اثنين وعشرين عامًا (١٣٦ – ١٥٨) . وطّد فيها أركان الدولة العباسية ، وأخضع الخارجين عليها فى كل أرجاء « الإمبراطورية » فهى لم تعد دولة دينية كما دعوا لها منذ بثّوا دعاتهم من فاتحة القرن . ولم تصر « للرضا من آل محمد » كما كانوا يدّعون . بل غصبوا حق أبناء علىّ ، كما كان بنو علىّ عند قيامها عاجزين عن تولى السلطة . وكان أحقهم بها – وهو جعفر بن محمد – عازفًا عنها ، عارفًا أن مهمة حياته هى تعليم المسلمين .

وجرت الأمور مجراها الطبيعى للغالبين على السلطة ، يطوون أضالعهم على الخوف والحقد والحذر . ويشرعون أسلحتهم فى كل مكان للدفاع عن دولتهم . وكان ذوو القربى فى طليعة الأعداء ، فاستعرت الشحناء بين الأقرباء ، ثم سالت الدماء . وجعفر الصادق ، بعزوفه واستعلائه ، بعيد عن المذابح . لكن بعده عنها ، لا يقيه بطش خليفة حذر ، متنمر ، تدعوه إلى المواجهة الشرسة ما توسوس له هواجسه مخافة أهل البيت وشيعتهم . وكان توفيق السماء حليف الإمام فى مواجهاته ، وإن بقيت الدولة على حذرها ، تنزل بأهل البيت العذاب والاسترهاب والحبس والقتل للخلاص منهم – مع التظاهر بالعدل فيهم ، حتى تقطع دابرهم .

الفصل الأول

بين السلطان والإمام

« إنما أنا سلطان الله فى الأرض »
« أبو جعفر المنصور »

أهل البيت

اختلف أهل التأويل فى صدد « أهل البيت » ، وهم يفسرون قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (ياأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وأُسَرِّحْكُنَّ سراحًا جميلا . وإن كنتن تُرِدْنَ الله ورسولَهُ والدار الآخرة فإن الله أعدَّ للمحسنات منكن أجرًا عظيمًا) ثم يوجه الخطاب فى الآيات ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، وفى الأخيرتين يقول - لنساء النبى - (وقَرْنَ فى بيوتكن ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهلية الأولى . وأَقِمْنَ الصلاة وَآتين الزكاة وأَطِعْنَ الله ورسوله . إنما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا . وَاذْكُرْنَ مايُتْلَى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفًا خبيرًا) .

وإذ كان التطهير هو الدرجة العليا للبشر ، والاختصاص به بين المسلمين يجعل لأهل البيت حقوقًا وامتيازات تؤهل لإمامة الدين ، وإمامة الدنيا ، أى خلافة الدين والدنيا ، وكان ثمة سنن مروية فى تفضيل علىّ وبنيه وجعلهم من الأمة بمجعل الأوصياء أو الأئمة وهذا شأن لا يسلمه بنو أمية ، ولا بنو مروان ، ولا بنو العباس ، ولا كثير من قريش ، فقد ذهب الفقهاء عمومًا ، والمفسرون

خصوصًا ، مذاهب شتى فى تعريف أهل البيت ، يمكن تحصيلها فيمايلى :

١ - قال الشيعة : إن أهل البيت هم رسول الله ﷺ وعلىّ وفاطمة والحسن والحسين . يؤيدهم فى ذلك حديث أم سلمة أم المؤمنين أن النبى أجلس الأربعة حوله على كساء له وضعه فوق رءوسهم وأومأ بيده اليمنى إلى ربه ثم قال : « اللهم هؤلاء أهل البيت . فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » .

وعن أم سلمة أن الآية نزلت والرسول ﷺ فى بيتها وأنها عندئذ كانت على باب البيت فقالت : أنا يارسول الله من أهل البيت ؟ وأنه قال : « وإنك إلى خير وأنت من أزواج النبى » وعنها أنها قالت : يارسول الله أدخلنى معهم . وأنه قال : « إنك من أهلى » .

٢ - وقال البعض : بلى عنى الله بذلك أزواج النبى ، والحجة فى ذلك توجيه الخطاب إليهن . ونقلوا ذلك عن ابن عباس ، تلميذ علىّ وشيعته ، وعامله - وذهبوا إلى أن « البيت » أريد به مساكن النبى ﷺ .

٣ - وقال فريق : بل إن « أهل النبى » هم أهل بيته . ولو كان أهل البيت هم زوجاته فقط لكان النص : (ليذهب عنكن الرجس) لا (عنكم) كما هو النص فى الآية . فدخل فى ذلك رجال . وأهل النبى - بدلالة السنن التى أشرنا إلى بعضها - هم فاطمة وعلى والحسن والحسين ويؤيد ذلك قول الآية (ويطهركم) . وهذا يوافق الرأى الأوّل .

٤ - وإذا دخل الرجال فهم - كما قال فريق آخر - بنو هاشم . والبيت يراد به بيت النسب . فيدخل فى ذلك أعمام النبى ، وفيهم بنو العباس وبنو أبى طالب .

٥ - ويتوسع محيى الدين بن عربى (٥٦٠) - فى الفتوحات المكية - فيدخل « الفارسى » فى أهل البيت . إذ الرسول يقول : « سلمان منّا أهل البيت » ويضيف ابن عربى أن جميع ما يصدر عن أهل البيت معفو عنهم فيه . فهو مطهرون بالنص . معصومون . وإن توجهت عليهم الأحكام الشرعية .

ويذكر البعض قول الرسول : « سألت ربى ألّا يُدخِل النار أحدًا من أهل

بيتى فأعطانا ذلك » وقوله : يافاطمة ، تدرين لم سميت فاطمة ؟ فقال علىّ : لم سميت ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله عزّ وجل قد فطمها وذريتها من النار يوم القيامة » .

٦ – وفريق يرى أن أبناء علىّ من الزهراء هم الذرية المقصودة فى سورة الطور حيث قوله – جل ثناؤه : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء) ورووا عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله ليرفع ذرية المؤمن إليه فى درجته » .

وبهذا ترتفع ذرية النبى – وهى ذرية علىّ من الزهراء – فتلتحق بالنبى . وهذا المعنى تفيده الآية ٢٣ من سورة الرعد : (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) فأهل البيت ذرية داخلة الجنة مع جدها عليه الصلاة والسلام .

٧ – وهذا فريق يوسع فيشمل ذوى القربى ، وتشمل آل محمد ، بقوله تعالى فى سورة الشورى : (قل لا أسألكم عليه أجرًا إلّا المودة فى القربى) .

وقال قوم : إن للنبى قرابة فى كل بطن من بطون قريش ، وإن كان أخص القرابة هم الذرية .

* * *

وظاهر أن كل هذه الأفراق على أن ذرية علىّ من فاطمة من أهل البيت ، وأن الخلاف فيما عدا ذلك ، فيرجح البعض أن القرآن والسنّة الشارحة يجعلان أهل البيت هم ذرية النبى من علىّ وفاطمة ، وهما ومعهما أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن .

لكن الشيعة يقولون قولاً واحدًا : إن الذرية وحدها وعليًّا وفاطمة هم أهل البيت ، بدلالات شتى من الحديث . ثابت منها أن النبى طفق ستة أشهر – بعد نزول آية التطهير – يمر وقت صلاة الفجر على بيت فاطمة فينادى « الصلاة ياأهل البيت . إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم

تطهيرًا » . فهذا نص وأنص منه حديث أم سلمة . إذ أفصح عنهم . واستبعد سواهم .

وفى بعض الروايات أن النبى ﷺ أدخل عليًّا وفاطمة وابنيهما تحت الكساء ثم جعل يقول : « اللهم إليك لا إلى النار وأنا وأهل بيتى . اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى - وفى رواية وحامتى - اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » .

وسيظل وصف أهل البيت قضية بين بنى العباس وبنى علىّ . فهو من مسوغات الخلافة واستمرار الرضا عنها . سأل الرشيد يومًا الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق : بم قلتم نحن ذرية رسول الله وأنتم بنو علىّ ؟ قال : قال تعالى : (ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزى المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى) وليس لعيسى أب ، وإنما ألحق بذرية الأنبياء من قبل أمه . وكذلك ألحقنا بالنبى أمّنا فاطمة . وزيادة على ذلك قال عز وجل : (فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) ولم يدع رسول الله ﷺ عند مباهلة النصارى غير علىّ وفاطمة والحسن والحسين .

ولم يكن لوصف أهل البيت كبير خطر ، فى دنيا الملوك من بنى أمية ، فلقد غلبوا أهل البيت على أمرهم جهارًا نهارًا ، برماحهم ، واستقرار الأمور لهم - لكن الدولة فى عهد بنى العباس قامت على شعار الدعوة « للرضا من آل محمد » دون تسمية أحد بذاته .

ولما أقبلت جيوش خراسان يقودها أبو مسلم الخراسانى ، بالدولة الجديدة ، بعد ربع قرن من الإعداد السرى ، كان مقدمها استجابة لهذا الشعار .

* * *

كتب أبو مسلم الخراسانى أيامئذ إلى الإمام جعفر الصادق : « إنى قد أظهرت الكلمة ودعوت الناس عن بنى أمية إلى موالاة « أهل البيت » . فإن

رغبت فلا مزيد عليك » . وأجاب جعفر الصادق معلنًا فلسفته : « ما أنت من رجالى . ولا الزمان زمانى »[1] .

وفى الوقت ذاته بعث أبو سلمة الخلال - الملقب بوزير آل محمد ، والذى سيصبح وزيرًا للسفاح أوّل خلفاء بنى العباس - إلى جعفر الصادق ، وعبد الله ابن .. « الحسن » ، وعمرو الأشرف ، من أبناء علىّ ، مع رجل من موالى أبى سلمة قائلًا له : إن أجاب جعفر فلا تذهب إلى غيره ، وإن لم يجب فاقصد إلى عبد الله . فإن أجاب فأبطل كتاب عمرو . وذهب الرسول إلى جعفر فقال : مالى ولأبى سلمة ، وهو شيعة لغيرى . ووضع الكتاب فى النار حتى احترق - وأبى أن يقرأه . قال الرسول : ألا تجيبه ؟

قال : قد رأيت الجواب .

ثم مضى الرسول إلى عبد الله . فقرأ الكتاب . وقصد إلى جعفر الصادق ينبئه بورود الكتاب إليه من شيعته بخراسان . قال الصادق له : ومتى كان لك شيعة بخراسان ؟ أأنت وجهت أبا مسلم إليهم ؟ هل تعرف أحدًا منهم باسمه ؟ فكيف يكونون شيعتك وهم لا يعرفونك وأنت لا تعرفهم ؟

قال عبد الله : كأن هذا الكلام منك لشىء ؟

قال الصادق : قد علم الله أنى أوجب النصح على نفسى لكل مسلم . فكيف أدخره عنك ؟ فلا تمن نفسك فإن الدولة ستتم لهؤلاء .

وذات يوم دخل على جعفر الصادق سدير الصيرفى قال : ياأبا عبد الله . مايسعك القعود . قال : لمَ ؟ قال : لكثرة أنصارك .. مائة ألف . مائتى ألف . فتساءل الإمام عن عدد المخلصين منهم . وأبدى زهدًا وبصرًا بالعواقب .

---

(١) خرج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب على بنى مروان سنة ١٢٧ فى الرى بخراسان ثم استسلم لأبى مسلم بعد إذ ظفر الأخير بجيوش بنى مروان . وكتب إليه يستعطفه بقوله : « من الأسير بين يديه بلا ذنب إليه ولا خلاف عليه . فإن الناس من حوضك رواة ونحن منه ظماء رزقنا الله منك التحنن ... فإنك أمين مستودع ورائد مصطنع . والسلام عليكم ورحمة الله » ولم يطلقه أبو مسلم . بل أورده حتفه . وقيل سمّه .

والحق أن زين العابدين وابنه وحفيده وبنيهم لم يتجهوا إلى أن تكون لهم « دولة » . ومن ذلك قول الكاظم لهشام بن الحكم : « ياهشام كما تركوا لكم الحكمة اتركوا لهم الدنيا » .

ولما خرج زيد بن زين العابدين على هشام كان خروجه ثورة طارئة . والمنهج الزيدى غير منهج الإمام جعفر . وثورة زيد لم يسبقها إعداد بل استجاب لأهل الكوفة فخذلوه كما خذلوا جدّه . وإنما الذى فكر ودبر وأنفذ الدعاة ، وتابع الدعوة ، هم بنو العباس .

وإبراهيم الإمام يكتب إلى واحد من دعاته فى خراسان : « .. وإن استطعت ألا تبقى فى خراسان من يتكلم العربية فافعل » وهو تعطش للدم فى سبيل السلطة ، وسفك لدماء العرب خاصة ، لا يقول به واحد من الأئمة .

* * *

وكان بنو هاشم قد اجتمعوا قبل ذلك بالأبواء – مكان فى أعلى المدينة – والقدور تغلى فى خراسان ، والجو يزخر بالنذر ، فعلى الذين يرسلون الدعاة إلى خراسان ، والذين تجرى الدعوة لهم ، أن يتدارسوا أمورهم ، ليعرفوا لمن تئول الأمور . فمثل فرع العباس بن عبد المطلب عم النبى إبراهيم الإمام « بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس » ، وأخوه أبو جعفر « المنصور » . وعمهما صالح بن على . ومثل فرع بنى علىّ بن أبى طالب ، عبد الله بن الحسن « بن الحسن بن على » وابناه محمد وإبراهيم . ومحمد ابن عبد الله بن .. عثمان بن عفان « لأن أمه من بنى الحسن بن على » وهو أخو عبد الله لأمه .

وأجمع الفرعان على « محمد بن عبد الله بن الحسن » الملقب بالنفس الزكية لورعه الكامل وعلمه المشهود به . بل قد تحمس له أبو جعفر ، وكان يومئذ يلبس قباء أصفر . ولما حج محمد لقى أبا جعفر فبايعه مرة أخرى . بالمسجد الحرام ذاته . وأمسك أبو جعفر بركابه يوم ذاك وراح يقول للناس : هذا مهدينا أهل البيت .

وإذ لم يكن لبيت الحسين ممثل فى اجتماع يوم الأبواء بعث عبد الله ابن الحسن إلى كبيرهم جعفر بن محمد فحضر واعترض على بيعة محمد ابن عبد الله .

قال : لا تفعلوا . فإن هذا الأمر لم يأت بعد . لا ندعك وأنت شيخنا ونبايع ابنك . وفى رواية أخرى أنه أضاف : إن كنت ترى أن ابنك هذا هو المهدى فليس به . وإن كنت إنماتريد أن تخرجه غضبًا لله وليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . فإنا والله لا ندعك وأنت شيخنا ونبايع ابنك[1] .

فغضب عبد الله وقال ؛ لقد علمت خلاف ما تقول . ولكن يحملك على هذا الحسد لابنى[2] .

قال جعفر : والله ماذاك يحملنى . ولكن هذا وإخوته وأبناؤهم دونكم .. إنها والله ما هى إليك ولكن لهم . وإن ابنيك لمقتولان . ثم نهض وتوكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهرى فقال : « أرأيت صاحب القباء الأصفر » - « أباجعفر » - قال نعم : قال : فإنا والله نجده يقتله .

قال عبد العزيز : أيقتل محمدًا ؟ قال : نعم .

قال عبد العزيز : فيما بعد « فقلت فى نفسى حسده ورب الكعبة » ثم قال عبد العزيز : ثم والله ما خرجت من الدنيا حتى رأيته قتلهما « محمدا وأباه » .

قال : فلما قال جعفر ذلك انفض القوم فافترقوا ولم يجتمعوا بعدها . وتبعه أبو جعفر وعبد الصمد « من أعمام أبى جعفر » فقالا : ياأبا عبد الله « جعفر الصادق » أتقول هذا ؟ قال : نعم . أقوله والله وأعلمه ..

قالوا : كان أبو جعفر يسميه الصادق لصدق نبوءته .

وقالوا : دعا محمد عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة لمبايعته فاعتل عليه وقال لا أبايع أحدًا حتى أختبر عدله .

---

(١) وليس فى نص الروايتين بيعة من جعفر الصادق لعبد الله أو لابنه محمد ، كما وهم البعض ، وإنما فيهما تفضيل للأب على الابن مع رفض البيعة .

(٢) وفى رواية أخرى أنه أضاف « ووالله ما أطلعك الله على غيبه » .

ولقد ظل أبو جعفر المنصور يذكر هذا لعمرو .

وكان جعفر الصادق إذا رأى محمد بن عبد الله بعد ذلك تغرغرت عيناه وقال : بنفسى هو .. إن الناس ليقولون إنه المهدى . وإنه لمقتول . ليس فى « كتاب علىّ » من خلفاء هذه الأمة .

بايع أبو سلمة الخلال للسفاح . ولم يبايع لأبى جعفر ، الأخ الأكبر ، لأن أمه كانت أم ولد بربرية تدعى سلامة . وبدأ حكم بنى العباس فى سنة ١٣٢ .

وأذيع فى الملأ أن محمد بن على - أبا السفاح - موصى له بوصية من « أبى هاشم » عبد الله بن محمد بن الحنفية بن علىّ بن أبى طالب ، إذا أحسّ عبد الله أثر السمّ الذى سقاه دسيس من الخليفة سليمان بن عبد الملك ابن مروان (٩٨) فمال فى الطريق إلى حيث مات عند محمد « بالحميمة » . وثمة من يعتقد أن الإمامة قد انتقلت بعد استشهاد الحسين إلى أخيه محمد ابن الحنفية « أمه خولة بنت جعفر من بنى حنيفة » .

وهذه الوصية تغنى بنى العباس عن الخلاف مع أبناء علىّ ، فى أن يكون العباسيون من أهل البيت أو لا يكونون .

بهذا صيّر بنو العباس محمد بن على بن عبد الله بن العباس إمامًا . فلما مات آلت الإمامة إلى ابنه إبراهيم فنودى بأنه « إبراهيم الإمام » . فلما قتل إبراهيم بايعوا للسفاح سنة ١٣٢ .

بين أبناء علىّ وبنى العباس :

قضى « السفاح » على الأحياء من بنى أمية ، وبنى مروان . فاستحق فى التاريخ لقبه . وأدار وجهه للآخرين . فسأل عبد الله بن الحسن عن ابنه محمد « النفس الزكية » وأخيه إبراهيم ، فلما علم باختفائهما سكت عن الطلب حينًا ، ثم عاجله أجله . وولى أبو جعفر سنة ١٣٦ . وألحّ فى طلبهما ، فأعجزاه هربًا .

وللأقرباء ، أو الأصدقاء ، أوّلية فى سورة السلطة إذا عريت من خشية الله .

وأولى الناس بالفتكة البكر منها : الأقرباء إذا خيف أن يصيروا أعداء ، والأصدقاء الذين يحتمل أن يقدروا على الإيذاء .. فالأولون يغرى السلطان بهم الحسد أوالحقد أو الخوف من جانبه ، لما يعرفون من دخائل يخشاها . أو لما يتضح لهم من عورات ، أو فيهم من مطامع . و استخفاف بالسلطان . الذى رأوه وهو سوقة ، أو مطالبة السلطان لهم بإعطائه حقه ، أو أكثر من حقه والآخرون أحرى بالخوف والحذر . سدًّا لذريعة الوثوب وافتراص الفرص . أو شغلا لهم بأنفسهم ، أومعالجة من السلطان لما يكابده من الشجن أو الفزع من جراء الحكم ، أو من العجز أو الجشع أو ضيق الصدر أو الأفق . وكالسلطان أعوانه .

ولا يتوازن فى سُدّة السلطة إلّا القليلون . وَقَلَّما ما يتوازنون ، وللإمام الصادق فى ذلك مقولة معلمة : « إذا كان لك صديق فولى ولاية فأصبته على العشر مما كان لك عليه قبل ولايته فليس بصديق سوء » .

قيل لأبى جعفر : « لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو » ! فقال « لأن بنى مروان لم تبل رممهم بعد . ونحن بين قوم قد رأونا بالأمس سوقة ونحن اليوم خلفاء ، فليس تتمهد هيبتنا فى نفوسهم إلّا بنسيان العفو واستعمال العقوبة » .

وصاحب السلطة كراكب الأسد – على ما قال أفلاطون – يهابه الناس وهو لمركوبه أهيب .

لهذا أخذ بنو العباس أبناء علىّ ، أخذ ظلوم غشوم ، وبطشوا ، وغدروا بمن حذروهم من أنصارهم وذويهم ، كعبد الله بن على عم المنصور . وأبى مسلم الخراسانى قائدهم . وأبى سلمة الخلال وزيرهم ، بمثل ما غدروا بأعدائهم بعد أن أمنوهم .

ولما أعطى أبو جعفر المنصور محمد بن عبد الله أمانًا كتب إليه محمد ساخرًا : « أى أماناتك هو ؟ أأمان ابن هبيرة ، أو أمان عمك عبد الله ، أو أمان أبى مسلم » .. فقد أعطى أبو جعفر عهودًا للكل ، وقتل الأوّل

والثالث ولم يكن قد قتل الثانى بعد . لكنه كان قد حبسه من سبع سنين ليقتله بعد أن يقتل محمد بن عبد الله بن الحسن ذاته . فصيّر خلافته ، كالمسبعة ، لا يأمن فيها الصديق ، أو العدو ، أو الصياد ، أو الفريسة !

وزاد ضراوة أبى جعفر على أقربائه أن لواحد منهم فى عنقه بيعة ، على ملأ منهم . كانت حريةأن تمنعهم وتمنعه . لولا ما للشهوة من خدر يطيح بالتوازن ، فسوّلت له نفسه أن يتخلّص من البيعة بالخلاص ممن بايعه ، وإن كان من قبل يمسك بركابه . بل طوّعت له شهوته أن يتخلص ممن قد يشهد ضدّه حتى لا يراه الناس أو يسمعوه يحكى لهم ما قد رأى وقد سمع .

قال يعقوب بن عربى : « سمعت أبا جعفر يقول فى أيام بنى أمية ما فى آل محمد أعلم بدين الله ولا أحق بولاية الأمر من محمد بن عبد الله . وبايع له . وكان يعرفنى بصحبته ، والخروج معه .. فلما قتل حبسنى عشرين سنة » .

* * *

طلب أبو جعفر من عبد الله بن الحسن ابنيه محمدًا وإبراهيم . فأنكر مكانهما ، فتقاولا . وأغلظ كل لصاحبه ، وانصرف الخليفة من المدينة . فبث الجواسيس يأتونه من كل مكان بأخبار بنى الحسن .

وفى سنة ١٤٠ قصد أبو جعفر للحج فنزل بالمدينة . ودعا عبد الله ابن الحسن وطالبه بولديه .

وكانا يأتيان أباهما معتمين فى هيئة الأعراب فيستأذنانه فى الخروج فيقول : « لا تعجلا حتى تملكا . إن منعكما أن تعيشا كريمين فلا يمنعكما أن تموتا كريمين » .

ولما لم ينل أبو جعفر منالاً انصرف من المدينة وأمر بحبس عبد الله ، وأهل بيته ، فبقوا فى السجن ثلاث سنين فى دار مروان – دار الإمارة فى حكم بنى أمية – حتى إذا كانت سنة ١٤٤ ولى أبو جعفر المنصور رباح بن عثمان عاملًا على المدينة .

وحجّ فى العالم ذاته فتلقاه عامله بالربذة فردّه إلى المدينة لإشخاص عبد الله ابن الحسن وأهل بيته – بما فيهم محمد بن عبد الله ... بن عثمان – شاهد

البيعة يوم الأبواء - فكانوا خمسة عشر أخذوا فى محامل إلى الربذة . ونظر الإمام الصادق إليهم وعيناه تهملان حتى جرت دموعه على لحيته . واقتيدوا إلى الربذة فى الأغلال . ومزقت السياط جسد « محمد بن عبد الله .. بن عثمان » حتى إذا خرج أبو جعفر فى محمل ، ناداه عبد الله بن الحسن قائلا : ياأبا جعفر . والله ما هكذا فعلنا بأسراكم يوم بدر ... فلوى أبو جعفر رأسه كبرًا ولم يعرج . وحمل أهل البيت تلقاء النجف . حتى إذا دخلوا الكوفة حبسوا فى قصر كان لابن هبيرة فى شرقى الكوفة .. وهدم عليهم البيت بعد ستين يومًا . فمات الذين لم يموتوا فى أثنائها . ودفن الجميع تحت الأنقاض . وشيخهم عبد الله فى الخامسة والسبعين !

وخرج محمد بن عبد الله لليلتين بقيتا من جمادى سنة ١٤٥ فاستولى على المدينة . وخرجت المدينة بأسرها مع محمد . فكان فى جيشه علماؤها الفحول . فيهم ابن هرمز شيخ مالك . وابن أبى سبرة ، وعبد الله بن عمر العمرى . ومصعب بن ثابت الزبيرى . أما مالك فاكتفى فى الحرب بفتياه أن بيعة المنصور كانت مكرهة ، ومن أجلها أصابه ما أصابه[1] من والى أبى جعفر وابن عمه سنة ١٤٦ .

وخرج مع محمد موسى وعبد الله ابنا الإمام جعفر الصادق .

وقصد جعفر الصادق إلى محمد فى مجلس حربه قال : أتحب أن يصطلم أهل بيتك « يستأصل » قال ما أحبّ ذلك . قال : فإن رأيت أن تأذن لى ، فإنك تعرف علّتى . قال محمد : قد أذنت لك .

ومضى جعفر الصادق : فالتفت محمد إلى ابنى جعفر وقال لهما : الحقا بأبيكما فقد أذنت لكما . والتفت جعفر فقال : ارجعا فما كنت لأبخل بنفسى وبكما . فحاربا مع محمد أعظم حرب ، وكان لعبد الله بلاء ممتاز .

ووجه المنصور إلى المدينة جيشًا بقيادة ابن عمه ، وولى عهده ، عيسى ابن موسى . وفى غرة رمضان خرج إبراهيم أخو محمد واستولى على أكثر من

---

(١) مالك بن أنس - عبد الحليم الجندى - طبعة دار المعارف ص ٢٣٨ حيث تفصيل الواقعة .

مكان فى إقليم البصرة – ثم استشهد محمد فى ١٤ من رمضان سنة ١٤٥ هـ . واستشهد إبراهيم[1] عند باخمرى لخمس بقين من ذى القعدة . وأرسلت رأسه إلى أبى جعفر المنصور ، فطوّف بها فى الآفاق .

واستولى عيسى بن موسى على عين أبى زياد ، ضيعة جعفر الصادق التى يقتات منها ، ويشرك فى ثمرها أهل المدينة .

وسنرى المنصور بعد عامين من انتصار عيسى بن موسى يخلعه من ولاية العهد . ويولى ابنه المهدى سنة ١٤٧ . وكان قد حبس عمه عبد الله بن على من سنة ١٣٨ فى دار لتخرّ عليه فيموت سنة ١٤٧ !

وعبد الله عمه وقائده المنتصر على آخر ملوك بنى أمية يوم الزاب . لكنه خرج عليه ، فأرسل إليه جيشًا بقيادة أبى مسلم الخراسانى ، ولجأ عبد الله إلى أخويه سليمان وعيسى فأخذا له عهدًا على المنصور كتبه « ابن المقفع » وفيه : « ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه فنساؤه طوالق . ودوابه حبس . وعبيده أحرار . والمسلمون فى حلٍّ من بيعته » فأما « أبو مسلم » فسيدعوه أبو جعفر إلى قصره بعد أمان يعطيه إيّاه ثم يخرج عليه عبيده فيقتلونه أمامه .

وأما عبد الله بن المقفع فسيقتله والى أبى جعفر سنة ١٤٢ . فيشفى صدر أبى جعفر .

* * *

روى الإمام الصادق ما كان بعد أن هدأت الأحوال . قال : « لما قتل إبراهيم بن عبد الله بباخمرى – حسرنا عن المدينة – ولم يترك فينا محتلم حتى قدمنا الكوفة . فمكثنا فيها شهرًا نتوقع القتل . ثم خرج إلينا الربيع الحاجب فقال : أين هؤلاء العلوية ؟ أدخلوا على أمير المؤمنين رجلين منكم من ذوى

---

(١) كان صاحب فقه وأدب . سأل عن صاحب له فقيل تركناه يريد أن يموت فضحك قوم ، فقال : لقد ضحكتم منها عربية ! قال عز وجل : (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه) . يعنى يكاد أن ينقض . فوثب أبو عمرو بن العلاء فقبل رأسه وقال : « لا نزال والله بخير مادام مثلك فينا » وأبو عمرو من أئمة اللغة الأولين .

الحجى . فدخلنا إليه أنا والحسن بن زيد . فلما دخلنا عليه قال : أأنت الذى تعلم الغيب ؟

قلت : لا يعلم الغيب إلا الله . قال : أنت الذى يجبى إليه هذاالخراج ؟ قلت : إليك يجبى - ياأمير المؤمنين - الخراج . قال : أتدرون لم دعوتكم ؟

قلت : لا .

قال : أردت أن أهدم رباعكم وأروع قلوبكم وأعقر نخلكم . وأترككم بالسراة لا يقربكم أحد من أهل الحجاز وأهل العراق . فإنهم لكم مفسدة .

قلت له : ياأمير المؤمنين إن سليمان أعطى فشكر . وإن أيوب ابتلى فصبر . وإن يوسف ظلم فغفر . وأنت من ذلك النسل .

فتبسم . وقال : أعد علىّ ما قلت . فأعدت ، فقال : مثلك فليكن زعيم القوم . وقد عفوت عنكم ووهبت لكم جرم أهل البصرة . حدثنى الحديث الذى حدثتنى عن أبيك عن آبائه عن رسول الله ﷺ .

قلت : حدثنى أبى عن آبائه عن علىّ عن رسول الله - ﷺ وآله - : صلة الرحم تعمر الديار وتطيل الأعمار وإن كانوا كفارًا . قال : ليس هذا .

قلت : حدثنى أبى .. عن رسول الله ﷺ وآله : الأرحام معلقة بالعرش تنادى : اللهم صِلْ من وَصَلَنِى وَاقْطَعْ مَنْ قَطَعَنى . قال : ليس هذا .

قلت : حدثنى أبى . أن الله عز وجل يقول : أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن بتّها بتته . قال ليس هذا الحديث .

قلت : حدثنى أبى .. أن ملكًا من الملوك كان فى الأرض كان بقى من عمره ثلاث سنين فوصل رحمه ، فجعلها الله ثلاثين سنة .

قال : هذا الحديث أردت . أىّ البلاد أحبّ إليك ؟ فو الله لأصلنّ رحمى إليكم .

قلنا : المدينة . فسرحنا إلى المدينة . وكفى الله مُؤْنَته » .

فى هذا اللقاء دليل على ما يخشاه من بنى علىّ ، ومن الصادق بالذات . فما

يخشاه من بنى علىّ هو فتنة الناس إذ يجتمعون إليهم . أما ما ينعاه على الصادق – وهو الوحيد الباقى ممن يمكن أن يجتمع بنو علىّ ، والناس ، حولهم – فلقد كان خليقًا أن تطيب به نفسه لما فيه من مصلحة له . وهو الادعاء على الصادق بأنه يعلم الغيب . فإنه لم يبايع لأحد يوم الأبواء .. بل ذكر أنها « الخلافة » ستكون لصاحب القباء الأصفر وهو أبو جعفر .

لكن الصادق كان حاسمًا فى ردّه عليه بأنه لا يعلم الغيب إلا الله .

وكان مما يخشاه أن يجبى إلى الصادق خراج بعض الرعية ، مما يعطى للإمام ، وكان الصادق فى ذلك حاسمًا أيضًا . إذ أعلن أن الخراج لا يجبى إلّا لأبى جعفر ، لأنه أمير المؤمنين . قال : إليك يجبى – ياأمير المؤمنين – الخراج . وجعل التسليم بإمارة المؤمنين يسبق كلمة الخراج ، فهذه العبارة بيعة بتمامها والخراج حق من بويع له .

وكان انتقال أبى جعفر من استجوابهم إلى إخبارهم بأسباب دعوتهم ، نقلة من الغضب إلى غيره . ومن الاستجواب إلى الوعيد ، وإلى الاستعلاء .

لكن الصادق نقله من عالم الكبرياء المظلم ، إلى آيات الله التى تطمئن لها القلوب . فجعله – دون أن يشعر – مقارنًا فى موقفه بمواقف الأنبياء ، لعله يهتدى بهم . وذكره كلام ربه جلّ وعلا . وذكره الشكر والصبر والمغفرة . وذيّل ذلك كله بأنه من نسل الذين يغفرون ويشكرون ويصبرون .

بهذا أمكن الرجل الذى قُدَّ قلبه من الصخر أن يبتسم . بل أقبل يسأل أن يتعلم . فحدثه الإمام الأحاديث ، واحدًا بعد واحد ، حتى وقف منها عند حديث طول العمر . فلقد كان يرجو أن يطول عمر دولته ، التى يخسر من أجلها فى كل يوم آخرته ، إلّا أن يغفر الله له ... فظنّ أنه بهذا الحديث يجد أمانًا لنفسه أو تخفيفًا لما تكابده . وعندئذ ظهر ضعف نفسه ، وجلال شأن المعلّم الذى يتعلم عليه .

ولم يكد الإمام يأخذ زمام الكلام حتى راح يعلّمه درسًا من الدروس فى البداء : وهو أن القضاء الذى يتوقف على الشرط يتحقق عند وقوع الشرط .

فهذا ملك وصل رحمه فطالت عمره من ثلاث إلى ثلاثين - وكان أبو جعفر ملكًا - ولكم طالت العمر على ملك بنيه وحفدته . فلقد كان كل خلفاء بنى العباس بعده منهم ، ملكوا خمسة قرون ، حتى دمر الظلم دولتهم .

إنما كان أبو جعفر يتداول الإمام الصادق بحذر خليق بما للصادق من كرامة عند الله والناس . وهو صاحب أكبر مدرسة شهدتها حواضر الإسلام فى ذلك الزمان : المدينة ومكة والكوفة وبغداد والفسطاط . وكان فى الستين من العمر ، يروى عنه الآلاف حديث النبى وفقه الصادق وأبيه وأجداده .

والذين يحسنون الظن بالمنصور لا يتصورون حلمه يطيش فيفقد الامة الإمام الذى لا ينازعه ملكه . وربما جاز للذين لا يحسنون الظن ، أن يخالوه يحسب حسابًا للأعداد التى لا تحصى من تابعى الإمام . وقد كان أبو جعفر يحسب حساب العلماء .

ومن بطش الحكام بالعلماء ما يدمر الدول .

ومن فداء الأتباع ما يستهان فيه بعرين الأسد . لقد اقتحم الفدائيون من أتباع سنان « شيخ الجبل » خيمة صلاح الدين وهو فى عسكره ليصيبوه بخناجرهم فى وجهه .

* * *

ظاهر من حديث الإمام أنه حدثه فى صلة ذوى الأرحام ، وإن كانوا كفارًا . فما أحراهم بالصلة إن كانوا غير ذلك . ويظهر مما يرويه الطبرى أن أبا جعفر كان يودّ أيامئذ لو نسى الناس ما كان من أهل البيت فى حقه . وما كان منه فى حقهم .

روى الطبرى : لما أتى المنصور برأس إبراهيم بن عبد الله وضعه بين يديه وجلس مجلسًا عامًّا وأذن للناس . فكان الداخل يدخل فيسلم ويتناول إبراهيم فيسىء القول فيه . ويذكر منه القبيح التماسًا لرضا أبى جعفر ، وأبو جعفر ممسك متغير لونه . حتى دخل جعفر بن حنظلة البهرانى فسلّم ثم قال

« عظم الله أجرك ياأمير المؤمنين فى ابن عمك وغفر له ما فرط فيه من حقك » فاصفر لون أبى جعفر وأقبل عليه فقال : أبا خالد . مرحبًا وأهلا . فعلم الناس أن ذلك قد وقع منه . فدخلوا فقالوا مثل ما قاله جعفر بن حنظلة .

وربما دلّ على ذلك الميل ما يرويه عيسى بن رؤبة : لما جيء برأس إبراهيم فوضع بين يدى أبى جعفر بكى . حتى رأيت دموعه على خدى إبراهيم . ثم قال : أما والله إن كنت لهذا لكارهًا . لكنك ابتليت بى وابتليت بك .

ولقد ترك أبو جعفر الذين تواروا عنه ممن خرجوا مع محمد وإبراهيم ، ومنهم الحسين بن زيد . وكان الحسين قد تربى فى بيت جعفر الصادق بعد قتل زيد . وكان يسمى « ذا الدمعة الكبيرة » لكثرة بكائه على أبيه وأخيه يحيى . ولم يسائل أبو جعفر ولدى جعفر الصادق « عبد الله وموسى » وقد خرجا مع محمد . وترك علماء المدينة . وترك عيسى بن زيد إذ توارى عنه . ولما قيل له من حرسه أو من المنافقين : ألا تطلبه ؟ قال : لا . والله لا أطلب منهم رجلاً بعد محمد وإبراهيم : أنا أجعل لهم ذكرا ؟

ومن ناحية أخرى ففقه الإمام الصادق يعلم الناس طاعة الإمام العادل . والصادق هو القائل : « لا يستغنى أهل بلدة عن ثلاثة يفزع إليهم فى أمر دنياهم وآخرتهم . فقيه عالم ورع . وأمير خيّر مطاع . وطبيب بصير ثقة ، فإن عدموا ذلك كانوا همجًا » .

وهو فقه فى طاعة الخليفة العادل أو الأمير الخيّر . وأبو جعفر يتمنى أن يظهر فى الناس كذلك .

والصادق يقول – ولا نحسبه يقصد إلّا أبا جعفر وأبناء عمه – « ماتثبت الدنيا إلّا على بنى العم المتعاطفين بالبر المتعلقين بالأدب المجتمعين على التناصر » . فهذه يد ممدودة بالسلام من الإمام . ودرس للرعية لتسلم العنان لأمير خيّر . وما أحرى أبى جعفر أن يكونه .

وفى سنة ١٤٧ عزم المنصور وهو راجع من موسم الحج أن يسير الإمام الصادق من المدينة إلى العراق فاستعفاه الإمام فلم يعفه وحمله معه . ولكن

الصادق كان يقبل عليه بمقدار فليست دنيا أبى جعفر لتجدر بالمقاربة .

وفى ذات يوم أرسل إلى الصادق : لماذا لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس ؟

فأجابه : « ما عندنا ما نخافك عليه ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له . ولا أنت فى نعمة فنهنيك عليها . ولا نعدها نقمة فنعزيك عليها . فلمَ نغشاك » ؟ ويجيب أبو جعفر : تصحبنا لتنصحنا . ويجيب الإمام :

« من أراد الدنيا فلا ينصحك ومن أراد الآخرة فلا يصحبك » فالذى يريد الدنيا يسير فى ركب صاحبها فلا يقول كلمة لله . والذى يريد الآخرة يعتزل مجالس رجل يعجزه عمله ويعميه أمله عن طريق الآخرة .

وصدق « جعفر الصادق » ولم يكذب أبو جعفر المنصور .

فلقد كان أحوج الناس إلى النصيحة . وكانت صحبة الصادق له أمانًا من النار .

* * *

دخل عليه سفيان الثورى يومًا فقال له : اتق الله فقد ملأت الأرض ظلمًا وجورًا فطأطأ رأسه وقال : ارفع حاجتك .. قال سفيان : حج عمر فقال للخازن : كم أنفقنا من بيت المال . قال : بضعة عشر درهمًا . وأرى هنا أموالاً لا تطيق الجمال حملها ..

وخرج سفيان .

ولما راجع المنصور كاتبه ليقتل سفيان قال له : « اسكت ياأنوك « أحمق » . فما بقى على الأرض من يستحى من غير « مالك » وسفيان »[1] .

---

(١) يروى مالك أنه استدعاه فدخل فوجد عنده ابن أبى ذؤيب (١٥٩) والقاضى ابن سمعان فسأل مالكًا عن حكمه « حكم المنصور » هو عدل أم جور ؟ فاستعفاه مالك بن الجواب . فسأل ابن سمعان عن حكمه فأثنى عليه . فسأل ابن أبى ذؤيب فأجاب : « أنت والله عندى شر الرجال . استأثرت بمال الله ورسوله وسهم ذوى القربى واليتامى والمساكين وأهلكت الضعيف وأتعبت القوى . وأمسكت أموالهم . فما حجتك غدًا بين يدى الله » قال المنصور : ويحك . ما تقول ؟ قال : رأيت أسيافًا وإنما هو الموت ولابدّ منه . عاجله خير من آجله .

قال مالك . ثم خرجا وجلست . فقال المنصور : أجد رائحة الحنوط عليك ؟ قلت : أجل لما نمى=

... ...

= إليك عنى ما نمى وجاءنى رسولك ظننت أنه القتل .. قال : أو ماترانى أسعى فى أود الإسلام وإعزاز الدين عائذًا بالله .. يا أبا عبد الله انصرف إلى مصرك راشدًا مهديًا .. وإن أحببت ما عندنا فنحن ممن لا يؤثر عليك أحدًا . قلت : إن يجبرنى على ذلك أمير المؤمنين فسمعًا وطاعة . وإن يخيرنى اخترت العافية .. قال : انصرف إلى أهلك معافى مكلوءًا . فلما أصبحنا أمر بصرر دنانير فى كل صرة خمسة آلاف درهم ثم دعا برجل من شرطته فقال له : تدفع إلى كل رجل منهم صرة . أما مالك إن أخذها فبسبيله . وإن ردّها عليك فلا جناح عليه . وإن كان ابن سمعان ردّها ، فأتنى برأسه وأن أخذها فهى عافيته . وإن أخذها ابن أبى ذؤيب فأتنى بأسه وإن ردّها عليك فسبيله .

قال مالك : أما ابن سمعان فأخذها وسلم . وأما ابن أبى ذؤيب فردّها وسلم . وأما أنا فكنت والله محتاجًا إليها فأخذتها . ثم رحل أبو جعفر متوجهًا إلى العراق .

وروى مالك أنه استدعاه يومًا وعبيد الله بن طاووس بن كيسان . وكان طاووس فقيه اليمن حتى مات فى سنة ١٠٦ « طاووس بن كيسان تلميذ ابن عباس جد أبى جعفر » قال أبو جعفر : حدثنى حديث أبيك . قال عبيد الله حدثنى أبى أن أشدّ الناس عذابًا يوم القيامة رجل أشركه الله فى سلطانه فأدخل عليه الجور فى حكمه . قال مالك فضممت ثيابى خوفًا من أن يصيبنى دمه .. فقال المنصور ناولنى هذه الدواة .. ثلاث مرات . فلم يفعل . قال أبو جعفر لم لا تناولنى ؟ قال أخاف أن تكتب بها معصية فأكون قد شاركتك فيها . قال : قوما عنى . ذلك ما كنا نبغى قال مالك : فمازلت أعرف لابن طاووس فضله منذ ذلك اليوم .

ويروى الإمام الشافعى حول أساطين جامع عمرو عن عمه محمد بن على بن شافع مثل ذلك . عندما قال ابن أبى ذؤيب أخذت المال من غير حلّه وجعلته فى غير أهله ، وأن المنصور رد عليه بقوله : والله لولا أنا لأخذت أبناء الفرس والروم والديلم هذا المكان منك فوالله لولا أنى أعلم أنك صادق لقتلتك .

أما عمرو بن عبيد فكان أبو جعفر المنصور يستقبله بالترحاب وينشد فى نزاهته الشعر « كلكم يمشى رويد . كلكم طالب صيد . غير عمرو بن عبيد » وهو زعيم المعتزلة الذين يطلقون ألسنتهم فى الملوك والصحابة . دخل عليه فقال : « إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها واذكر ليلة تتمخض عن يوم لا ليلة بعده » قال الربيع بن يونس حاجب المنصور : يا عمرو غممت أمير المؤمنين . قال عمرو للمنصور : « إن هذا صحيك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يومًا واحدًا . وما عمل وراء بابك بشىء من كتاب الله ولا سنة نبيه » قال أبو جعفر المنصور : فما أصنع ، قلت لك خاتمى فى يدك فتعال وأصحابك فاكفنى . قال عمرو : لا : ادعنا بعدلك ، تسخ أنفسنا بعونك ، ببابك ألف مظلمة أردد منها شيئًا نعلم أنك صادق . ولما مات عمرو كان أول واحد من الرعية ، وآخر واحد ، ينظم فى رثائه الخليفة شعرًا . ومن أبياته :

وإذا الرجال تنازعوا فى شبهة ... وصل الحديث بحجة وبيان
ولو ان هذا الدهر أبقى صالحًا ... أبقى لنا عمرًا أبا عثمان

والجاحظ من تعصبه لزعيمه يقول فيه : « إن عبادته تفى بعبادة عامة الفقهاء والمحدثين » . وستبقى صلة المعتزلة بالدولة العباسية طويلا بعد وفاة عمرو وأبى جعفر لأن المعتزلة يمدون إلى =

وإذا كان هذان الإمامان اللذان ليس فى الأرض غيرهما ، تلميذين فى مجلس الإمام الصادق . يلتمسان علمه ويترسمان هديه . فما أحوج الخليفة إلى أن يقارب مجلس الصادق بأن يدعوه إلى مجلسه .

الحق أن أبا جعفر كان من فزعه من الآخرة وحاجته إلى رضا الرعية صادق الرغبة فى التقرب إلى العلماء ، ومن أجل ذلك كان يرضى منهم ما يصك مسامعه من النقد وإن كان لا يستجيب له .

طلب ذلك من صديقه عمرو بن عبيد ، والمعافرى[1] ، فاعتزلاه لكثرة الظلم على بابه كما قالا له . وهزّ ضميره ابن أبى ذؤيب وتوعده بجهنم . وكمثله صنع ابن طاووس فقبل استعفاء الصديقين . وأقر صدق ابن أبى ذؤيب[2] فقال له ؛ لولا أننى أعلم أنك صادق لقطعت عنقك ، كما ارتاح لابن طاووس مع رفضه أن يطيعه مخافة أن تؤدّى طاعته إلى المشاركة فى معصية .

ولقد رفض أبو حنيفة أن يجلس للقضاء فى دولته بحجة الخوف من أن يظلم الناس إرضاء لحاشية يحب أبو جعفر أن يكرمها ، وما إكرام الحاشية إلا الحكم لمصلحتها فيما ترتكب من مظالم ، لحساب صاحب السلطان أو نتيجة إغضائه .

= بنى العباس سببًا علميًّا وسببا سياسيًّا قالوا : إن واصلا « وهو زعيمهم مع أخى زوجته « عمرو بن عبيد » أخذ أصوله عن أبى هاشم (٩٨) عبد الله بن محمد بن الحنفية – بن علىّ بن أبى طالب وكان أبو هاشم قدريًّا مثلهم – ينفى القدر – ويضيفون أن محمد بن عبد الله بن عباس [1] تعلم على أبى هاشم[2] وتلقى منه الوصية بالإمامة بعده – دون بنى على بن أبى طالب – عندما أحس أبو هاشم بدنو أجله إذ دس السم إليه سليمان بن عبد الملك .

(١) لما استخلف أبو جعفر قصد إليه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافرى قادمًا من القيروان وكان زميلا له فى عهد الطلب ، فعرض عليه المقام ببغداد . وقال له كيف رأيت ما وراء بابنا ؟ فأجابه : رأيت ظلمًا فاشيًا وأمرًا قبيحًا . قال : لعله فيما بعد من بابى . فأجابه : بل كلما قربت استفحل الأمر وغلظ . قال : ما يمنعك أن ترفع ذلك إلينا وقولك مقبول عندنا ؟ فأجابه : رأيت السلطان سوقًا . وإنما يرفع إلى كل سوق ما ينفق فيها . قال : كأنك كرهت صحبتنا ؟ فأجابه : ما يدرك المال والشرف إلا من صحبتكم . ولكنى تركت عجوزًا وإنى أحب مطالعتها .

(٢) يفضل أحمد ابن حنبل بن أبى ذؤيب على مالك لمجاهرته بالحق فى وجه أبى جعفر . وتقدير الشافعى لابن أبى ذؤيب يتراءى فى رأى تلميذه أحمد . وفى رواية الشافعى عن عمه فى صدده . أما تقدير مالك فكان عن مشاهدة أو مشاركة .

وهذا ردّ فقهى من إمام أهل الرأى يتضمن التنديد بأبى جعفر وصحبته .

وصحبة الظالم وجه مشاركة فى الحكم ، وربما فى الظلم ، بتوطيد الأمور للظالم أو بتمكينه أن يبلغ غرضه ، أو تقديم مصلحته على مصلحة المحكومين . وفيها شهادة له فى الناس . فهى شركة خاسرة فى الدنيا والآخرة .

والإمام الصادق هو القائل : « أيما مؤمن قدّم مؤمنًا إلى قاض أو سلطان جائر ، فقضى عليه بغير حكم الله ، فقد شركه فى الإثم » وعلىّ يقول : « كفاك خيانة أن تكون أمينًا للخونة » .

وذات يوم دخل زياد الفندى على الصادق فقال له : وليت لهؤلاء ؟

– يقصد أصحاب السلطان – قال : نعم . لى مروة وليس وراء ظهرى مال . وإنما أواسى إخوانى من عمل السلطان . فقال « يازياد أما إذ كنت فاعلا ، فإذا دعتك نفسك إلى ظلم الناس عند القدرة على ذلك فاذكر قدرة الله عز وجل على عقوبتك وذهاب ما أتيت إليهم عنهم ، وبقاء ما أتيت إلى نفسك عليك » .

وفى واحد من اللقاءات يقول الصادق لأبى جعفر : « لقد بلغتُ ثلاثة وستين ، وفيها مات أبى وجدى » ليعلن له الاستخفاف بالموت الذى يتهدد الناس به ، وأن الإمامين اللذين قضيا – زين العابدين والباقر – لم يعمرا أكثر مما عمر ، ولكل أجل كتاب . فماذا يهاب ؟ إنه يطلق إعلانه بلغة عالية ، وفى هدوء قادر على أن يطفئ جذوة رجل خصِم . وفى توكل على الله يبلغه مأمنه . فهو إذا واجهه واجهه والله معه .

أرسل إليه أبو جعفر ذات يوم رزام بن قيس يدعوه للقائه ، ففصلا عن المدينة ، حتى بلغا النجف فنزل جعفر عن راحته فأسبغ الوضوء وصلّى ركعتين ثم رفع يديه وهو يقول : « اللهم بك أستفتح ، وبك أستنجح ، وبمحمد عبدك ورسولك أتوسل . اللهم سهل حزونته وذلل لى صعوبته وأعطنى من الخير أكثر مما أرجو واصرف عنى من الشر أكثر مما أخاف » .

ثم ركب راحلته حتى إذا بلغا قصر المنصور ، أعلم المنصور بمكانه . فلم

يحجبه قليلاً أو كثيرًا ، بل تفتحت الأبواب . ورفعت الستر . فلما قرب من المنصور قام إليه فتلقاه . وأخذ بيده وماشاه . حتى انتهى به إلى مجلسه . ثم أقبل عليه يسأله عن حاله .

وذات يوم عزم المنصور على حاجبه الربيع بن يونس أن يدعوه ، وكانت تبرق فى أساريره بوارق الخطر . فلما خرج من اللقاء بسلام سأل الربيع الإمام الصادق عن الدعاء الذى دعا به ربه فأكرمه الله فى لقاء المنصور . فأخبره به . فالصادق يستحضر رضا بارئ السماء فى كل آونة وتعينه السماء .

ومع ذلك السلام الذى نشده الصادق وعلمه ، يروى الطبرى أن المنصور لما عزم الحج – فى آخر أيامه – دعا ريطة بنت أبى العباس زوج المهدى ، وكان زوجها بالرى ، فأوصاها بما شاء ودفع إليها مفاتيح غرفة بها خزانته ، وأمرها ألا تسلمها إلى المهدى إلا عندما يجىء نبأ موت المنصور . فلما مات ذهبت ريطة والمهدى ففتحا الغرفة فإذا بقتلى من بنى علىّ فى آذانهم رقاع . فيها أنسابهم . وهم بين شيوخ وشباب وأطفال . فلما رأى المهدى ذلك ارتاع . فحفرت لهم مقبرة دفنوا فيها ثم بنى عليها دكانًا .

لم يكن المنصور يكتفى بأن يقول مقالة لويس الرابع عشر بعد ثمانية قرون « أنا الدولة » . ذلك المقال الذى نبذه واستهجنه الساسة والمؤرخون فى الشرق والغرب ، بل كان المنصور يدعى دعوى أبعد وأشدّ ، كان يخطب فيقول : « إنما أنا سلطان الله فى الأرض » فيجمع فى يده ما عجز عنه الأباطرة والبابوات جميعا ! فإنما تقاسم الإمبراطور والكنيسة الأشياء ، فى القرن التاسع للميلاد ، فصار لقيصر ملك الأرض وللكنيسة مملكة السماء . أما أبو جعفر المنصور فادعى فى الأرض سلطان السماء . وأى شىء يستبعد على صاحب هذه الدعوى !!

* * *

وأبو جعفر – مع ذلك – ليس إلّا واحد من المستبدين الذين يزخر ثبت التاريخ بخطاياهم أو ضحاياهم .

إليك مثلاً واحدًا من تاريخ الدولة التى تلقى إليها الديمقراطية الغربية

مقاليدها : لقد أرسل « هنرى الأوّل » ملك إنجلترا فرسانه يقتلون « توماس » بيكت رئيس أساقفة لندن من أجل خلافه معه فى ولاية العهد لابنه فى الثلث الأخير من القرن الثانى عشر . وفى الثلث الأوّل من القرن السادس عشر بعث « هنرى الثامن » ملك إنجلترا « توماس » ولزى رئيس أساقفة يورك إلى السجن ريثما يصدر عليه حكم الإعدام فمات قبل أن يعدم . ثم أرسل إلى المقصلة « توماس » مور كبير قضاته من أجل خلافهما له فى زواجه وطلاقه .

* * *

ولقد كان فزع المنصور من أجل دولته حريًّا أن يخرجه عن الاتزان فيستحوذ عليه الشيطان ، لولا إمساك الإمام الصادق بالأعنة كلها كلما لقيه ، فكان يضعه فى موضع النصفة .

والذين يهابون لقاء الملوك ضعفاء عن إخفاء دخائلهم ، من البغض او الحسد أو الخوف . والذين ليس فى قلوبهم من ذلك شىء يشجعون . أما الأئمة فالله معهم . وهو حسبهم .. وأين من هذا الذى معه مالك الأرض والسماء ، ملوك دولة أو إقليم !

من أجل ذلك يشجع الرجال الصدق إذ يستشهدون ، ومن أجله نظر الصادق إلى أبى جعفر فى شجاعة وصدق . فكان يلزمه القصد والنصفة .

ولا عجب إذا كان أبو جعفر فى دخيلة نفسه ، يريد ليحفظ ظاهر الأمر فى وقار من لا يسفك الدم ، إلّا بقدر . والصادق حجة له فى ثبات حكمه ، مذ كان لا يرى بيعة غيره .

وأبو جعفر عليم بما يجرى فى ملكه : وهو من مطالع حكمه يستعمل العسس فى كل اتجاه . فلم يلبث سنين حتى أصبح يعلم بكاء بنت مالك بن أنس من الجوع فى داخل الدار ، وهى وأبوها يكتمانه إلا على الله سبحانه !

وأبو جعفر هو القائل عن أوتاد حكمه : ما أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعفّ منهم . وهم أركان الدولة لا يصلح الملك إلّا بهم . أما أحدهم فقاضٍ لا تأخذه فى الله لومة لائم . والآخر صاحب

شرطة ينصف الضعيف من القوى . والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية . ثم عضّ على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول : آه آه . قيل : ماهو ياأمير المؤمنين قال : صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة .

obeikandl.com

الفصل الثانى

الرجُلان

« يـا بنى : إن الذين حـولنا
لو يعلمون عن علىّ ما نعلم تفرقوا عنا
إلى أولاده » .

عبد العزيز بن مروان

الحق أن الاختلاف كان شديدًا بين الإمام جعفر الصادق وبين الخليفة أبى جعفر المنصور : فى طبيعتها وطريقتها وغاياتها .

هذا صاحب سلطان ، فيه شركاء متشاكسون ، تركبه هموم الدنيا ،.وتلبس جلده شياطينها . يترافع لينحنى الناس له ، ويجمع دنياهم فى قبضته . شحيح النفس منقبض اليد ، « دوانيقى » ، يحسب بالدرهم والدانق[1] تبدو منه صعقات السلطان عند الفزع . وتحوله مطامعه من الدماثة إلى الشراسة . فلا يطمئن له أحد ، أقام دولته على أشلاء الأعداء ، وفزع الأقرباء ، وجماجم أهل البيت ، فى خزائنه !

أما الإمام فرجل سلم لكل رجل : يتواضع ليرفع الناس كلهم ، ولا تستعبده الدنيا قيد أنملة . يعطى ولا يأخذ . ويحيى أنفس الناس ، بالعطاء المسماح من العلم ، والجاه ، والمال ، « ما قال لا قط إلا فى تشهده » . فهكذا كان أبوه وجده .

والحق كذلك أن المنصور – بنجاحه فى إقامة أكبر دولة فى التاريخ الوسيط –

---

(١) الدانق سدس درهم .

يعتبر واحدًا من ثلاثة لا يعرف لهم التاريخ الإسلامى رابعًا . ولا ينزل بهم التاريخ العالمى عن أعظم المؤسسين للدول .

أولهم معاوية بن أبى سفيان ، وثانيهم عبد الملك بن مروان . مصايرهم متشاكلة . ووسائلهم متشابهة ، وخصامهم لأهل البيت أساس دولتهم . ونجاحهم فى دنيا السلطة مقطوع القرين :

بدءوا علماء ، وانتهوا ملوكًا كالملوك الأعاجم ! والإسلام فضل من الله ، يسخر لخدمته من يشاء . ولو مال عن الجادة رجل ، فإنما يخذل نفسه ولا يصيب الإسلام بسوء .

لقد أخطأ معاوية فى إقامة دولته وفى حربه . وكان لزاما أن يقوده خطؤه إلى أن يجعل الدولة . « هرقلية كما مات هرقل قام هرقل » . فيكون ابنه يزيد أشأم وألأم خلف لسلف . لكن أحدًا لا يتنازع فى أن دولته - وإن لم تمثل دولة الدين - قد انتشرت فى البر والبحر ونشرت الإسلام وجاهد فى غزواتها الصحابة وبنوهم والعلماء والفقهاء ، بل غزا وجاهد فيها بين جيوش المسلمين أبو الشهداء ، الحسين بن على ، فى فتح أفريقية وغزو جرجان وطبرستان والقسطنطينية .

ومعاوية هو الذى مهّد لدولة ابن عمه مروان بن الحكم .

وعبد الملك بن مروان هو المؤسس الحقيقى للدولة المروانية التى أينعت فروعها بالأندلس وأبقت الإسلام فى أوربة ثمانمائة عام ، لتهيئ للحضارة الحديثة أن تنطلق من جامعات الأندلس وجوامعها . وهو عمّ عمر بن عبد العزيز وصهره .

وعمر : خامس الراشدين فى مدة خلافته . الذى كتب لعامله على المدينة يوم ولى الخلافة : اقسم فى ولد فاطمة رضوان الله عليهم عشرة آلاف دينار فقد طالما تخطتهم حقوقهم . وقال معلنًا حق علىّ وباطل بنى أمية ومروان « كان أبى[1] إذا

---

(١) عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، عينه عبد الملك على مصر وأفريقية . وهو الذى بنى مدينة حلوان ضاحية الفسطاط - القاهرة . وفيها عاش عمر بن عبد العزيز زمانا . وجيوش أفريقية هى التى فتحت الأندلس بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير .

خطب فنال من علىّ تلجلج . فقلت : يا أبت إنك تمضى فى خطبتك فإذا أتيت على ذكر علىّ عرفت منك تقصيرًا ؟ قال : أو فطنت إلى ذلك ؟ يا بنى إن الذين حولنا لو يعلمون من علىّ ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده .. ».

لكن أبا جعفر كان أثقل الثلاثة حملاً . إذا كان معاوية وعبد الملك قد سبقاه ففصلا بين الدين والدولة فجزَّأا نظرية الدولة الإسلامية ، وكان هو قد سار على الدرب الذى اختطّاه ، إن المعارك التى خاضها من أجل دولته كانت أوسع مدى.

ففزعه من أبى مسلم وجنده لم يكن إلا رجع الصدى لصوت يتصايح فى آفاق حياته ، وأعماق ذاته : أنهم سرقوا الدولة من أبناء علىّ . ومن هنا خوفه المستمر من انتقاض أهل خراسان الذين جاءوا لمبايعة « الرضا من آل محمد » . وأهل البيت أولى منه فى أنظار الذين جاءوا به وبأخيه إلى السلطة .

وخوفه من أعضاء بيته أشدّ . فلقد كان عمه عبد الله بن على قائد جيش الشام ، لكنه خرج عليه ، وأخمد فتنته أبو مسلم الخراسانى ، حتى إذا استسلم – على عهد – حبسه أبو جعفر ليقتله بعد زمن من قتله أبا مسلم ذاته . وكذلك غدر بعيسى بن موسى الذى انتصر على محمد وإبراهيم فسلبه حقه فى ولاية العهد ، وولى ابنه المهدى عهده . فكان غدره كهيئة ما غدر عبد الملك بعمرو بن سعيد الأشدق فى ولاية العهد ، قائلاً : « ما اجتمع فحلان فى شول إلّا أخرج أحدهما صاحبه » .

وما كان نقض معاوية عهده مع الحسن بن على ، إلّا درس المعلم الأوّل للرجلين : أن يستعملا الزمن . وأن ينتهزا الفرص . وأن يحركا الحوادث بدهاء : وأن يقطفا الثمر : ثمرة ثمرة .

وأبو جعفر لا يتردد فى إعلان التشابه بينهم وفى تعطشه للدم . فيعلن فى الناس أن « الملوك ثلاثة : معاوية وكفاه زياده . وعبد الملك وكفاه حجّاجه . وأنا . ولا كفاة لى » .

كأنما لم يكن فيما سفكه كفاية . فكان يريد أن يسفك له دمًا أكثر سفاحون أصغر !

الواقع أن أزمات أبى جعفر كانت آخذة بخناقه من كل صوب . فهى فى نفسه ، وفى بيته ، وفى دولته ، وفى صلته بالأمة : أن كانت القوة العسكرية التى أجاءته إلى الحكم ، قد تخلّت عنه بل حملت السلاح ضده . وكانت القوة الفكرية التى قامت عليها الدولة ، قد صار أصحابها فرائس له . وكانت القوة العصبية ، قوة أسرته ، تترنح بخروج عمه عبد الله وقتله . وبمغامراته للاستئثار لبنيه بالخلافة دون سائر أهله .

فإذا كان ثمة من أحبه ، فإن حبهم كان أقبح من البغض ، مذ كانوا يؤلهونه، فيكفرون أنفسهم ويفضحونه ، بل كادوا يقتلونه ، يوم أحاط الراوندية بقصره فلم يمكنه الله منهم إلا بمساعدة عدو كان يطلب رأسه ، هو معن بن زائدة الشيبانى . وكان معن حريًّا أن يقتله فى وطيس المعركة . حتى الذى أنجاه كان عدوًّا له !

وفى سنة ١٤٥ انتفضت خراسان فقتلت جيوشه من أهلها سبعين ألفًا وأسرت بضعة عشر ألفًا .

ولم يكن شغله بالجيوش المحاربة فى المشرق أو فى جزيرة العرب أهم أشغاله . ففى أفريقية خرج عليه محمد بن الأشعث والى أفريقية ، فجرد عليه جيشًا بقيادة الأغلب بن سالم ، وسيقتل الأغلب بعد سنين سنة ١٥٠ . ولم ينهزم الخوارج إلا بعد أن خاضعوا ثلاثمائة وخمسة وسبعين وقعة ! وأمام جيش قوامه خمسون ألفًا .

كل أولئك وهو من شح نفسه ، ومن اصطحاب جماجم أهل البيت فى خزائنه ، فى أمر مريج . يحسب أن كل صيحة عليه هى العدو . وأن كل خروج عليه يدعو الجميع ليخرجوا . وهم على خروج قادرون .

مع كل ذلك نجح أبو جعفر بالحذر والغدر ومعاجلة الخصوم . فاستبقى دولته لتكون أطول الدول الإسلامية عمرًا . وأبعدها فى الحضارة العالمية أثرًا .

لكن التاريخ – وقانونه الاستقامة – وطبيعة الأشياء – وقانونها « لكل فعل ردّ فعل ، مساوٍ له فى المقدار ، ومضادّ له فى الاتجاه » – لم يتركا أبناءه

وحفدته دون عقاب . وكأنما كان طول عمر دولته تطويلاً للعقاب عليهم وتكثيرًا لما ينزل بهم .

* * *

كان من لوازم السلطة أو علامات عدم الثقة بالنفس أو بالغير ، أن تتراءى من أبي جعفر فى لقائه لأهل البيت أو التعامل معهم نزعات المستوفز الحذر ، أو مظاهر الاستعلاء عند مواجهة الأعداء ، أو من يضعهم فى مواضع الأعداء لكن الإمام « الصادق » كان يمسك بالزمام فيرد الخليفة دائما إلى حيث يطلب الموعظة ، أو العلم .

ومن إمساك الزمام فى أحد هذه اللقاءات إمساك الخليفة ذاته أن يميل على أهل البيت . فيقول له « لا تقبل فى رحمك وأهل الرعاية من أهل بيتك من حرم الله عليه الجنة وجعل مأواه النار . فإن النمّام شاهد زور وشريك إبليس فى الإغراء بين الناس . فقد قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) ونحن أنصار وأعوان . وللملك دعائم وأركان ، ما أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، وأمضيت فى الرعية أحكام القرآن ، وأرغمت بطاعتك الله أنف الشيطان . وإن كان يجب عليك فى سعة فهمك وكثرة علمك ومعرفتك بآداب الله أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك فإن الكافى ليس بالواصل . إنما الواصل من إذا قطعته رحمه وصلها . فصل رحمك يزد الله فى عمرك ، ويخفف عنك الحساب يوم حشرك » .

ويقول المنصور : قد صفحت عنك لقدرك . وتجاوزت عنك لصدقك . فحدثنى عن نفسى بحديث أتعظ به ويكون لى زاجر صدق عن الموبقات .

وبهذا السؤال انتشل المنصور نفسه من موقع قاطع الرحم ، إلى موضع المواسى لذوى القرابة ، ومكانة طالب الموعظة ، فأدلى بها إليه الإمام .

قال : « عليك بالحلم فإنه ركن العلم . واملك نفسك عند أسباب القدرة . فإنك إن تفعل ما قدرت عليه كنت كمن شفى غيظًا وداوى حقدًا ، وأحب أن

يذكر بالصولة . واعلم أنك إن عاقبت مستحقًّا لم يكن غاية ما توصف به إلا العدل . والحال التى توجب الشكر أفضل من الحال التى توجب الصبر » .

تلك آداب الله ، وأسباب الحكم الصالح ، وملاك السيطرة للحاكم المسلم على قلوب الرعية .

وظاهر أن أبا جعفر كان يتظاهر بالاستعلاء إذ يدعى الصفح ، وليس لديه تهمة .. ولو كانت عنده تهمة للصادق لما طلب الموعظة إليه .

وللملوك سماعات ، أو أبواق دعايات ، منتشرة فى الرعية ، تلتقط موجات الرضا والغضب ، والهدوء والقلق ، وتبث نظائرها ، حسب الحاجة . والنمامون كثر ، كالفراشات التى تدور حول النور ، تلتمس الدفء أو الظهور . ولأبى جعفر جهاز لاينى عن استعماله ليروع خصومه ، أو ليجعلهم فى قبضة يده ...

فلقد يدس من أجهزته دسيسًا بعد دسيس على بنى الحسن ، والحسين ، مثل أن يدعو ابن مهاجر ذات يوم فيقول له : خذ هذا المال وإيت المدينة والق عبد الله بن الحسن وجعفر بن محمد « الصادق » وأهل بيتهم وقل لهم : إنى رجل من خراسان من شيعتكم وقد وجهوا إليكم هذا المال . فادفع إلى كل واحد منهم على هذا الشرط . كذا وكذا . فإذا قبض المال فقل إنى رسول . وأحب أن تكون معى خطوطكم بقبض ما قبضتموه منى ... وذهب ابن مهاجر . فلما رجع قال له أبو جعفر ما وراءك ؟ قال : أتيت القوم وهذه خطوطهم ما خلا جعفر ابن محمد . قال لى : يا هذا اتق الله ولا تغرن أهل بيت محمد . فإنهم قريبو العهد بدولة بنى مروان . وكلهم محتاج . فقلت . وماذاك أصلحك الله . فقال : ادن منى . فدنوت فأخبرنى بجميع ما جرى بينى وبينك كأنه ثالثنا .

قال المنصور : يا ابن مهاجر إنه ليس من أهل بيت نبوّة إلّا وفيهم محدَّث . وإن جعفر بن محمد محدثنا اليوم .

فالصادق يكشف للمنصور ودسيسه ، حقائق يعلمونها ، وينبههما على ألّا يورطا أهل البيت من جراء حاجاتهم . يريد لأهله السلامة . وللخليفة

الاستقامة ، وللأمة الطمأنينة . وفى كل ذلك خير لأبى جعفر المنصور .

* * *

ولقد كان المنصور - نفسه - يجعل الصادق حجة من حججه ، وإذا فاخر أهل البيت فاخرهم به !

كتب إليه محمد بن عبد الله « النفس الزكية » يدعوه ليبايعه ، وعيّره بأمهات العباسيين لأنهن أمهات ولد . وأم المنصور بربرية تدعى سلامة ، يتردد اسمها على ألسنة الذين فاخروه . فتولّى المنصور كبره فى الرد على محمد . ولم يدع الفرصة تفوته ليستفيد حجة من مكانة الإمام الصادق . قال فيما قال : « وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل من على بن الحسين زين العابدين . وهو لأم ولد . ولهو خير من جدك حسن بن حسن . وما كان فيكم بعده مثل محمد بن على الباقر وجدته أم ولد ، ولهو خير من أبيك . ولا مثل ابنه جعفر . وجدته أم ولد ، وهو خير منك » .

وغضّ المنصور طرفه عن أم الولد فى شجرة الباقر « شاه زنان » بنت كسرى ملك الفرس . وأين منها - بعد إذ أسلمت - سلامة !

على أن اللقاءات - أو الاحتكاكات - بين الرجلين لا تتوقف .

فهذان قطبان . لكل منهما عالمه . وهما ضدان لهما مستويان . والشرف فيهما لرجل الدين والزهد والعلم . والملوك أحوج إلى العلماء من العلماء إلى الملوك .

وأبو جعفر حريص غُدَر ، يسلط على الصادق من وقت لآخر ، وفى مكان بعد آخر ، وجوهًا من التهديد لشخصه والاتهام لولائه والإزراء بعلمه .

يقول له ذات يوم فى لقاء له بالكوفة : أنت يا جعفر ما تدع حسدك وبغيك وفسادك على أهل البيت من بنى العباس . وما يزيدك الله بذلك إلا شدّة حسد ونكد ، وما تبلغ به ما تقدره . فيجيبه الصادق : « والله ما فعلت شيئًا من ذلك . ولقد كنت فى ولاية بنى أمية - وأنت تعلم أنهم أعدى الخلق لنا ولكم ، وأنه لا حق لهم فى هذا الأمر - فوالله ما بغيت عليهم ولا بلغهم عنى شىء من جفائهم الذى كان لى . وكيف أصنع هذا الآن . وأنت ابن عمى . وأمس الخلق

بى رحما، وأكثر عطاء وبرًّا فكيف أفعل هذا » !

والصادق بهذا يسجل للخليفة برّه . ويقدر له أوّلية ذوى الأرحام عنده فى البرّ بهم ، ويقرر له حقّه فى الخلافة .. وليس للمنصور فوق ذلك طلبات . وبهذا يستلّ الضغن من صدره ، ليدعه فى ميدانه الذى يسرّه الله له .

ومع ذلك يعاد المشهد فى بغداد ، بعد سنة ١٤٥ ، فيستحضره المنصور لمواجهة جديدة .

يقول له : يا جعفر . ما هذه الأموال التى يجيبها لك المعلى بن خنيس ؟

قال الصادق : معاذ الله ما كان من ذلك شىء .

قال المنصور : تحلف على براءتك بالطلاق والعتاق .

قال الصادق : نعم أحلف بالله ما كان من ذلك شىء .

قال المنصور : بل تحلف بالطلاق والعتاق .

قال الصادق : ألا ترضى بيمينى : الله الذى لا إله إلا هو !

قال أبو جعفر : لا تتفقه على .

قال الصادق : وأين يذهب الفقه منى ؟

قال المنصور : دع عنك هذا فإنى أجمع الساعة بينك وبين الرجل الذى رفع عنك هذا حتى يواجهك .

فأتوه بالرجل ..

قال الصادق : تحلف أيها الرجل أن الذى رفعته صحيح ؟ قال : نعم . ثم بدأ باليمين ، قال : والله الذى لا إله إلا هو الغالب الحى القيوم .

قال الصادق : لا تعجل فى يمينك فإنى استحلفك .

قال أبو جعفر : ما أنكرت من هذه اليمين ؟

قال الصادق : إن الله تعالى حىّ كريم إذا أثنى عليه عبده لا يعاجله بالعقوبة . ولكن قل أيها الرجل : أبرأ إلى الله من حوله وقوته . وألجأ إلى حولى وقوتى . إنى لصادق برّ فيما أقول .

قال المنصور للرجل : احلف بما استحلفك به أبو عبد الله .

قال راوى الخبر : فحلف الرجل . فلم يتم الكلام حتى خرّ ميتًا . فارتعدت فرائص المنصور . وقال للصادق : سر من عندى إلى حرم جدك إن اخترت ذلك . وإن اخترت المقام عندنا لم نأل جهدًا فى إكرامك . فوالله لاقبلت بعدها قول أحد أبدًا .

وأين يذهب الفقه من إمام المسلمين ، وهو الذى يوجه اليمين ، ومن حقّه صياغتها !! وفى الصيغة ما ذكّر المفترى بعظم افترائه ، وبالخالق سبحانه (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا) . ومن الإنسانى ، ومن جلال مقام الإمام عند الله والناس ، أن يخرّ صريعًا من يفترى على الله وعلى الإمام ، فى مجلس الخليفة .

بهذه الآية هدى جبار السموات جبارًا على الأرض لا يطأطئ رأسه . فإذا حركها عند ما يناوشه الذباب سأل حُضّاره كالمستنكر : لمَ خلق الله الذباب !! وكان الصادق حاضرًا يومًا فأجاب : ليذل الله به الجبابرة .

ولئن كان فى وجود الذباب فى المجلس تذكرة للجبابرة ، ففى سقوط المفترى على الإمام بين أيديهم آية ما بعدها آية .

وكما يضمن أبو جعفر طاعة الإمام بالبغتات يصطنعها من حين لآخر ، لا يتورع عن محاولة إفحام الإمام ، بين علماء العصر ، أو تسخير أعظم علماء العراق ، لينصب منه شركًا يوقع فيه الإمام ! وليس هوى أبى جعفر مع أى منهما . ولا بأس عنده إذا أعجز كل منهما ، أو أحدهما ، صاحبه .

وإن المرء ليلمس خساسة الحيل الظاهرة من أبى جعفر ، باتخاذ العلم والفقه أداة للشرّ المدبّر ، وعظماء العلماء وسائل للإساءة للمسالمين الذين يأمن جانبهم فلنقس عليها فظاعة تدابيره السرية لمن يخشى العواقب منهم ، ولندرك جلالة الحق إذ ينتصر على الحيلة ، وجلجلة الحقيقة إذ تظهرها وسيلة أريد بها طمس معالمها ، ومكانة الإمام الصادق فى العلم إذ يتواضع أمامه العظماء من الفقهاء ، فى مجلس علمى يسيطر عليه خليفة عالم :

أقدم المنصور الإمام الصادق من المدينة إلى العراق وبعث إلى أبى حنيفة فقال

له : إن الناس قد افتتنوا بجعفر . فهيئ له المسائل الشداد .

يقول أبو حنيفة عن لقائه بعد ذلك : « بعث إلى أبو جعفر وهو بالحيرة فأتيته . فدخلت عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه . فلما أبصرت به دخلتنى من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلنى لأبى جعفر فسلمت عليه ، فأومأ إلى فجلست . ثم التفت إليه فقال : يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة . قال جعفر : إنه قد أتانا . ثم التفت إلىّ المنصور وقال : يا أبا حنيفة ألق على أبى عبد الله « الصادق « مسائلك . فجعلت ألقى عليه فيجيبنى فيقول : أنتم تقولون كذا . وأهل المدينة يقولون كذا . ونحن نقول كذا . فربما تابعهم . وربما خالفنا جميعا حتى أتيت على أربعين مسألة » .

ولقد قال أبو حنيفة فى مقام آخر : « ألسنا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس » .

وإنما يقصد أبو حنيفة باختلاف الناس الاجتهاد الفقهى للمقارنة بين مذاهب المجتهدين .. فأبو حنيفة - وهو الإمام الأعظم عند أهل السنة - يقرر أن الإمام الصادق أعلم الناس باختلاف الناس فى المدينة حيث علم المحدثين ، وفى الكوفة حيث علم أهل الرأى .. وكانتا قد بلغتا أوجهما ، على أيدى أبى حنيفة ومالك ، وهما التلميذان فى مجالس الإمام الصادق . وكمثلهما كان إمام العراق الآخر سفيان الثورى .

وأبو حنيفة أكبر سناً من جعفر الصادق . وُلد قبله بأعوام وسيموت بعده . وكان أبو حنيفة كما قال مالك لو حدثك أن السارية من ذهب لقام بحجته .

والجاحظ كبير النقدة يقول بعد مائة عام : « جعفر بن محمد الذى ملأ الدنيا علمه وفقهه ، ويقال إن أبا حنيفة من تلاميذه وكذلك سفيان الثورى . وحسبك بهما فى هذا الباب » .

والجاحظ يذكر تلاميذ العراق . ولو ذكر تلاميذ المدينة لما نسى مالك ابن أنس .

* * *

بلغ الإمام الصادق بمسالمته للمنصور بعض آماله لأهل بيته ، بقية أيام حياته ، بل طوال خلافة أبى جعفر المنصور . فكان ميمون النقيبة بالسلام الذى نشده ، والأمان الذى دعا له ، وأطال زمانه . ومنع كثيرًا من الطغيان الذى طالما شكاه أبوه ، على ما سيروى ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة – « ثم لم نزل أهل البيت نستذل ونستضام ، ونقصى ونمتهن ، ونحرم ونقتل ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا . ووجد الكاذبون والجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعًا .. فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة ورووا عنا ما لم نقله وما لم نفعله ليبغضّونا إلى الناس . وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن . فقُتِلت شيعتنا بكل بلدة . وقطعت الأيدى والأرجل على الظنّة . ومن يذكر بحبّنا والانقطاع إلينا سُجن أو نُهب ماله أو هدمت داره . ثم لم يزل البلاء يزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين . ثم جاء الحجاج[1] فقتلهم كل قتلة وأخذهم بكل ظنة وتهمة . حتى أن الرجل يقال له زنديق أحب إليه من أن يقال شيعة علىّ » .

وفى عصر الباقر كان الحسن البصرى (١١٠) الجسور « قاضى عمر بن عبد العزيز وشيخه الذى لا يهاب الخلفاء » إذا روى عن أمير المؤمنين علىّ قال : « قال أبو زينب » ليخفى الاسم الذى لا خفاء له !

بل كان الشعبى (١٠٤) شيخ المحدثين بالعراق يقول : « ماذا لقينا من آل علىّ إذا أحببناهم قتلنا وإذا أبغضناهم دخلنا النار » .

وكان طبيعيًّا فى دولة « هرقلية » همها الملك لا الدين ، تعاقب من تتوهم خطره عليها وتترك من تزندق ، أن تزداد الاستهانة بالدين فى مقابل السلام الذى تنشده الدولة ، والبلهنية الى يؤثرها دعاة الدعة . بدأ ذلك من عهد معاوية وسيستمر استمرار فساد الدولة . وستستبقيه لتصرف الناس عن الاهتمام بأهل بيت النبى ، أو توقع بهم لفرطات تفرط من أحدهم ، أو تعزى كذبًا إليهم ،

---

(١) أطلق الخليفة سليمان بن عبد الملك من سجون الحجاج فى يوم واحد ثمانين ألفا . منهم ثلاثون ألفًا بغير ذنب . ومنهم ثلاثون ألف امرأة .

منتهزة للفرص حينا أو مفتعلة لها فى أغلب الأحيان .

ثم كانت الأوامر تصدر من بغداد إلى أرجاء الإمبراطورية التى تدين لبنى العباس ، ومنها مصر ، أن « لا يقبل علوىّ ضيعة . ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها . وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلّا العبد الواحد – والرقيق يوم ذاك قوّة العمل – وإن كانت بين العلوىّ وبين أحد خصومة فلا يقبل قول العلوّى . ويقبل قول خصمه بدون بينة » !

وكانوا يسفرون من الأطراف إلى العاصمة ليكونوا تحت الرقابة بل أمر الرشيد أن يضمن العلويون بعضهم بعضًا ، وكانوا يعرضون على السلطان كل يوم ، فمن غاب عوقب ... وكأن « أهل بيت النبى » جالية من العدو أو شرذمة من المشبوهين ..

* * *

ولقد كان يكفى للحيطة أقل القليل من حاكم يريد أن يطمئن . وإنما كان ذلك الكيد سياسة إبادة مستمرة ، يشترك فى تنفذها الخلفاء ، والأشياع الظلمة . تدفع الثائرين إلى أن يثوروا ، فيؤخذوا بثوراتهم ، أو يؤخذ غيرهم بجرائر تنسب إليهم ، أما سياسة أهل البيت فواضحة من شعار أبناء علىّ فى كلمة مسلم بن عقيل : « إنّا أهل بيت نكره الغدر » قالها عندما عرض عليه البعض قتل عبيد الله بن زياد فى إحدى زياراته . فنجا ابن زياد بهذا الشعار ليقتل مسلمًا فيما بعد . أما شعار حاشية معاوية فكان « إن لله جنودًا من عسل » يقصدون دسّ السم إلى أعدائهم فيه .

ولقد طالما استعمل الطغاة السمّ فى أهل البيت فى القرون التالية . فإن لم يكن سمّ فى خفاء فالقتل جهرة . ومن الروايات أن أئمة أهل البيت – الاثنى عشر – ماتوا مسمومين ما عدا أمير المؤمنين عليًّا وأبا الشهداء الحسين – ماتا شهيدين .

وفى أيام الخليفة الهادى (سنة ١٦٩) كان أهل بيت النبى فى المدينة يستعرضون كل يوم ! لكل واحد منهم كفيل من نسيب أو قريب . بل ولى

عليهم واحد من ذرية عمر بن الخطاب هو عبد العزيز بن عبد الله . فولى بدوره على أهل البيت رجلا يقال له عيسى الحائك . فحبسهم الحائك فى المقصورة . فثارت لأجلهم المدينة إذ ثاروا ، وكسرت السجون وأخرج المسجونون ، وبويع للحسين بن على بن الحسن . فبقى واحدًا وعشرين يومًا بالمدينة ثم ارتحل إلى مكة فأقام بها إلى زمن الحج .

وكرر التاريخ نفسه فى خروج الحسين ومن معه من أهل المدينة إذ جاءه الإمام موسى الكاظم يستقيله من الخروج معه ، كما صنع أبوه مع النفس الزكية « محمد بن عبد الله » . قال الكاظم للحسين « أحب أن تجعلنى فى حلٍّ من تخلفى عنك » قال : أنت فى سعة . قال الكاظم : « أنت مقتول .. وعند الله عزّ وجلّ احتسبكم من عصبة .. » .

وجهز الهادى جيشًا لاقاه حيث استشهد فى موقع يقال له : « فخ » ومعه كثير من العلويين . وحملت رأس « الحسين شهيد فخ » إلى القائد العباسى بالبشرى ! مع رءوس مائة آخرين .

واستعرض القائد الرءوس بالمدينة فقال الإمام الكاظم عندما عرضوا رأس الحسين : « إنا لله وإنا إليه راجعون . مضى والله مسلمًا صالحًا . صوّامًا قوامًا آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر . ما كان فى أهل بيته مثله » .

وكان مع الحسين يحيى بن عبد الله بن الحسن « أخى محمد وإبراهيم ، وإدريس أبناء عبد الله بن الحسن » فلما انتهت المعركة استترثم ظهر ، فخرج على الرشيد فى بلاد الديلم ، ووجه إليه الرشيد جيشًا بقيادة الفضل بن برمك حتى استسلم بعهد مكتوب . ومع ذلك استفتى الرشيد العلماء لقتله ، فأبى ذلك محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة وصاح : ماذا تصنع ، لو كان محاربًا وولّى كان آمنًا .

لكن الرشيد وجد من علماء السوء من أفتاه بقتله ، وكان هو أقدر على النفاق السياسى من مفتيه . أخذ من المفتى ما يملكه ، ليصنع هو ما يقدر عليه .. فسجن يحيى وضيق عليه الخناق حتى مات فى سجنه ، كمثل ما سيموت فى

سجن الرشيد الإمام موسى الكاظم ويشهد الرشيد الناس عليه ، ليبرئ نفسه من تهمة اغتياله .

أما الأخ الرابع إدريس فأفلت هاربًا إلى مصر ، ثم إلى المغرب ، وقيل دسّ إليه الرشيد هناك من سمّه . فأسس ابنه دولة الأدارسة .

وسيموت فى حبس الرشيد كذلك عبد الله بن الحسن « الأفطس » . قتله جعفر بن برمك وزير الرشيد . وسيموت فى حبسه محمد بن يحيى بن محمد بن عبد الله بن الحسن ، والعباس بن محمد بن عبد الله ، وكذلك الحسين بن عبد الله بن جعفر[1] .

وفى عهد المأمون وجّه إلى جماعة من آل أبى طالب . فحُملوا إليه فى مرو عاصمة خراسان وفيهم الإمام على الرضا « بن الكاظم بن الصادق » . فخاطبه فى أن يكون وليّ عهده . فأبى . فتهدّده بقوله : « إن عمر جعل الشورى فى ستة آخرهم جدك . وقال : من خالف فاضربوا عنقه . ولابدّ من قبول ذلك » فقبل . وبايع له المأمون والعباس بن المأمون .

ثم دعاه المأمون للخطبة فأوجز ، وكأنه يتوقع وجازة أيامه . فاكتفى بعد أن حمد الله بقوله : « إن لنا عليكم حقًّا برسول الله صلى الله عليه وآله . ولكم علينا حق فإذا أديتم إلينا ذلك وجب علينا الحق لكم » . لكنه مات بعد قليل فى ظروف مبهمة لا يستبعد منها دسّ السمّ كما تؤكد الشيعة ، فموت على الرضا كان حلًّا لإشكالات بنى العباس سواء من يحبون المأمون ، أو الكارهون

---

(١) وتستمر عجلات الطغيان فى الدوران . وتتوالى مقاتل الطالبيين توالى الخلفاء العباسيين – ففى بدء عهد المأمون يقتل بالعراق : الحسن بن الحسين بن زيد عند قنطرة الكوفة مع أبى السرايا . والحسن ابن إسحق بن على فى وقعة السوس مع أبى السرايا . ومحمد بن الحسن بن الحسين يقتل باليمن فى أيام أبى السرايا وعلى بن عبد الله بن محمد يقتل باليمن فى أيام أبى السرايا ومحمد بن إبراهيم بن إسماعيل « وهو ابن طباطبا » الخارج مع أبى السرايا سنة ١٩٩ مطالبين بالبيعة « للرضا من آل محمد » . وقد انهزموا بجيش هرثمة بن أعين قائد المأمون سنة ٢٠٠ . وقتلى العلويين على يد هذا الجيش كثيرون .

للرضا ، أو للمأمون ذاته[1] .

ولا نستطرد للسرد . فليس فى تاريخ البشرية ، كلها ، أسرة شرّدت وجرّدت ، وذاقت العذاب والاسترهاب ، مثل أهل بيت النبى ﷺ .

بدأ بهم تاريخ الإسلام مجده . واستمر فيهم بعبرته وعظمتها . قدم أبوهم للبشرية أسباب خلاصها بكتاب الله وسنة الرسول . وقدم أهل بيته أرواحهم فى سبيل القيم التى نزل بها القرآن وجاءت بها السنة . كانت مصابيحهم تتحطم لكن شعلتهم لا تنطفئ ، لتخلد الجهاد والاستشهاد والإرشاد ، بالمثل العالى الذى كانوه ، والضوء الذى لم تمنع الموانع من انتشاره ، وعلم فيه أبناء النبى أمته بعض علومه : أن الاستشهاد حياة ، للمستشهدين وللأحياء جميعًا[2] .

---

(١) وفى عهد المعتصم خرج محمد بن القاسم .. بن على بالطالقان فقبض عليه عبد الله بن طاهر وبعث به إلى الخليفة . وحبس المعتصم عبد الله بن الحسن .. بن جعفر حتى مات فى محبسه . فلما جاء الواثق أمن العلويون بضع سنين إذ جمعوا ثم حبسوا ، عن الانطلاق خارج العاصمة سامرا ، فتطامنوا واطمأنت السلطة . ثم هبّت عليهم فى أيام المتوكل ريح عاتية من جنون الفزع .

فلقد أزال قبر الحسين وحرثه حتى لا يزار . وشتت شمل شيعته وفرقهم فى النواحى فمنهم من حبسوا ومنهم من تواروا حتى ماتوا فى مهربهم - وتناقل الناس أشعارًا منسوبة إلى ابن السكيت عالم النحو الكبير ، وكان يعلم ولدى المتوكل . وفى هذه الأشعار :

تالله إن كانت أمية قد أتت ... قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله ... هذا لعمرك قبره مهدوما
أسفوا على ألا يكونوا شاركوا ... فى قتله فتتبعوه رميما !

وربما أراد المتوكل أن يتيقن من صدور هذا الشعر أو من ولاء العالم حين سأله :

ايهما أحسن : ولداى « المؤيد والمعتز » أم الحسن والحسين ؟.. ولم يرضه جوابه . فأمر بقتله فقتلوه . ولم يلبث المتوكل إلا قليلا حتى قتله ابنه « المنتصر » فى مؤامرة !

وإنما كانت فظاعة الجريمة الأخيرة قصاصًا عجلت به السماء ، لمقتل عالم آثر الصدق . ولم يصلح للعلويين بال إلا أشهرًا بعد مصرع المتوكل . ليعود البطش بهم إلى عنفوانه فى أيام المستعين . فمنهم من خرج وخرج الناس معه ، كيحيى بن عمر خرج فقتل . ومنهم من خرج ولم يخرج الناس معه ، فحبس ليموت سنة ٢٧١ . وهو الحسن بن محمد المعروف بالحرون . ومنهم محمد بن جعفر خرج وحبس حتى مات فى سامراء ليتتابع سجل الشهداء ..

(٢) نقف عن السرد ، عند أبيات لابن الرومى (٢٢١ - ٢٨٤) من جيميته فى رثاء يحيى بن عمر بعد مقتله إذ خرج عل بنى العباس فى القرن الرابع من جراء ظلمهم :

= أمامك فانظر أى نهجيك تنهج ... طريقان شتى . مستقيم وأعوج
أكل أوان للنبى محمد ... قتيل زكى بالدماء مضرج ؟
بنى المصطفى كم يأكل الناس شلوكم ... لبلواكمو عما قليل مفرج
أبعد المسمى بالحسين شهيدكم ... تضاء مصابيح السماء فتسرج ؟
أيحى العلاء لهفى لذكراك لهفة ... يباشر مكواها الفؤاد فينضج
لمن تستجد الأرض بعدك زينة ... فتصبح فى أثوابها تتبرج ؟
سلام وريحان وروح ورحمة ... عليك ومحدود من الظل سجسج
ألا أيها المستبشرون بيومه ... أظلت عليكم غمة لا تفرج
نظار لكم أن يرجع الحق راجع ... إلى أهله يومًا فتشجوا كما شجوا
غررتم إذا صدقتمو أن حالة ... تدوم لكم . والدهر لونان . أخرج
أبى الله إلا أن يطيبوا وتخبثوا ... وأن يسبقوا بالصالحات ويفلجوا
لعل قلوبًا قد أطلتم غليلها ... ستظفر منكم بالشفاء فتثلج